سببه في التعلق بعبد الرحمن الناصر لما احتفل لدخول رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذي اشتهر ذكره احب ان يقوم الخطباء والشعراء بين يديه بذكر جلالة مقعده ويصف ما تهيا له من توطيد الخلافة ورمي ملوك الامم بهيبة باسه وبجلالته وتقدم الى الامير الحكم ابنه وولي عهده باعداد من يقوم بذلك من الخطباء ويقدمه امام انشاد الشعراء فتقدم الحكم الى ابي علي البغدادي ضيف الخليفة وامير الكلام وبحر اللغة ان يقوم فيخطب فقام فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ثم انقطع وبهت فما وصل ولا قطع ووقف ساكتا مفكرا فلما راى ذلك منذر بن سعيد قام قايما بدرجة من مرقاة ابي علي ووصل افتتاحه بكلام عجيب بهر العقول جزالة وملا الاسماع جلالة ثم ذكر الخطبة كما سبق وقال بعد ايرادها ما صورته فصلب العلج وغلب على قلبه وقال هذا كبير القوم او كبش القوم وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاغة لسانه وكان الناصر اشدهم تعجبا واقبل على ابنه الحكم ولم يكن يثبت معرفته فسال عنه فقال له هذا منذر بن سعيد البلوطي فقال والله لقد احسن ما شاء ولئن اخرني الله بعد لارفعن من ذكره فضع يدك يا حكم عليه واستخلصه وذكرني بشانه فما للصنيعة مذهب عنه ثم ولاه الصلاة والخطابة في المجلس الجامع بالزهراء ثم توفي محمد بن عيسى القاضي فولاه قضاء الجماعة بقرطبة واقره على الصلاة بالزهراء ومن شعره في هذه الواقعة قوله

مقال كحد السيف وسط المحافل • فرقت به ما بين حق وباطل • بقلب ذكي ترتمي جنباته •
كبارقة رعد عند رقش الانامل • فما دحضت رجلي ولا زل مقولي • ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل •
وقد حدقت حولي عيون اخالها • كمثل سهام اثبتت في المقاتل • لخير امام كان او هو كاين •
لمقتبل او في العصور الاوايل • ترى الناس افواجا ياتون بابه • وكلهم ما بين راج وآمل •
وفود ملوك الروم وسط فنايه • مخافة باس او رجا لنايل • فعش سالما اقصى حياة مومل •
فانت غياث كل حاف وناعل • ستملكها ما بين شرق ومغرب • الى درب قسطنطين او ارض بابل •

انتهى كلام ابن سعيد وهو يويد كلام ابن خلدون ان المامور بالخطبة هو القالي وذكر ان الناصر قال لابنه الحكم بعد ان ساله عنه لقد احسن ما شاء فلئن كان حبر خطبته هذه واعدها مخافة ان يدور ما دار فيتلافى الوهي فانه لبديع من قدرته واحتياطه ولئن كان اتى بها على البديهة لوقته فانه لاعجب واغرب قال ابن سعيد ولما فرغ منذر من خطبته انشد هذا المقام الذي ما عابه فند • لكن قايله ازرى به البلد • لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا • لكنني منهم فاغتالني النكد • ويروى بدل هذا الشطر [illegible] لولا الخلافة ابقى الله حرمتها • ما كنت ابقى بارض ما بها احد • انتهى قلت كانه عرض بابي علي القالي وتقديمهم اياه في هذا المقام والله اعلم ومن نظم منذر بن سعيد قوله الموت حوض وكلنا نرد • لم ينج مما يخافه احد • فلا تكن مغرما برزق غد • فلست تدري بما يجيء غد • وخذ من الدهر ما اتاك به • وسلم الروح منك والجسد • والخير والشر لا تذعهما • في الناس الا التشنيع والحسد • ولقيه ذات يوم شخص فخاطبه بالكنية فقيل له ابو ذيك وانت تخاطبه بالكنية فقال • لا تعجبوا من انني كنيته • من بعد ما قد سبنا واذانا • فالله قد كنى ابا لهب وما • كناه الا خزيه وهوانا • وقال في المطمح منذر بن سعيد البلوطي اية حركة وسكون وبركة لم تكن معدة ولا تكون • وآية سفاهة في تحلم • وجهالة ورع في طي تبسم • اذا جد وجد • واذا هزل نزل • وفي كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مرقب • ولا اكتسب اثما ولا احتقب • ولي قضاء الجماعة بقرطبة ايام عبد الرحمن ناهيك من عدل اظهر • ومن فضل اشهر • ومن جور قبض • ومن حق رفع ومن باطل خفض • وكان مهيبا صليبا صارما غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لاحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم • واستمر في القضاء الى ان مات الناصر لدين الله ثم ولي ابنه الحكم فاقره وفي خلافته توفي بعد ان استعفى مرارا فما اعفي • لم يحفظ عنه مدة ولايته قضية جور • ولا عدت عليه في حكومته زلة • وكان غزير العلم كثير الادب متكلما بالحق • متبينا بالصدق • له كتب مولفة في السنة والورع • والرد على اهل الاهواء والبدع • وكان خطيبا بليغا • وشاعرا محسنا • ولد عند ولاية المنذر بن محمد • وتوفي سنة خمس وخمسين وثلاثماية • ومن شعره في الزهد قوله

كم تصابي وقد علاك المشيب • وتعامى عمدا وانت اللبيب • كيف تلهو وقد اتاك نذير •
ان سياتي الحمام منك قريب • يا سفيها قد حان منه رحيل • بعد ذاك الرحيل يوم عصيب •
ان للموت سكرة فارتقبها • لا يداوي وان اتاك طبيب • كم توانى حتى تصير رهينا •
ثم تاتيك دعوة فتجيب • باموز المعاد انت عليم • فاعملن جاهدا له يا اريب •
وتذكر يوما تحاسب فيه • ان من يذكر فسوف ينيب • ليس من ساعة من الدهر الا •
للمنايا عليك فيها رقيب •

ولعلنا نذكر شيئا من احوال منذر في غير هذا الموضع •

رجع لاخبار الناصر لدين الله حكي انه لما اعذر لاولاد ابنه ابي مروان عبيد الله صنع صنيعا عظيما بقصر الزهراء لم يتخلف احد عنه من اهل مملكته وامر ان يدخل لشهوده الفقهاء المشاورون ومن يليهم من العلماء والعدول ووجوه الناس فتخلف من بينهم المشاور ابو ابراهيم وافتقد مكانه لارتفاع منزلته فساء الخليفة الناصر اذ ابو ابراهيم من كبار علماء المالكية الذين عليهم المدار ووجد الناصر بسبب ذلك على ابي ابراهيم وامر ابنه ولي العهد الحكم بالكتاب اليه والتفنيد له فكتب اليه الحكم رقعة نسختها بسم الله الرحمن الرحيم حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك لما امتحن امير المومنين مولاي وسيدي ابقاه الله الاولياء الذين يستعد بهم وجدك متقدما في الولاية متاخرا عن الصلة على انه قد انذرك ابقاه الله خصوصا للمشاركة في السرور الذي كان عنده لا اعدمه الله توالي المسرة ثم انذرت من قبل ابلاغا في التكرمة فكان

منك

منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة واستبلغ امير المومنين في انكاره ومعاتبتك عليه فاثبت عليك عنك الحجة فعرفني اكرمك الله ما العذر الذي اوجب توقفك عن اجابة دعوته ومشاهدة السرور الذي سر به ورغب المشاركة فيه لنعرفه ابقاه الله بذلك فتسكن نفسه العزيزة اليه ان شاء الله تعالى فاجابه ابو ابراهيم سلام على الامير سيدي ورحمة الله قرات ابقى الله الامير سيدي هذا الكتاب وفهمته ولم يكن توقفي لنفسي انما كان لامير المومنين سيدنا ابقاه الله ولسلطانه لعلمي بمذهبه وسكوني الى تقواه واقتفاء اثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم فانهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها ولا بما يغض منها ويطرق الى تنقصها يستعدون بها لدينهم ويتزينون بما عندها لرعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم فلهذا تخلفت ولعلمي بمذهبه توقفت ان شاء الله تعالى فلما اقرا الحكم اباه الناصر لدين الله جواب ابي ابراهيم اعجبه واستحسن اعتذاره وزال ما بنفسه عليه وكان الفقيه ابو ابراهيم المذكور معظما عند الناصر وابنه الحكم وحق لهما ان يعظماه وقد حكى الفقيه ابو القاسم بن مفرج قال كنت اختلف الى الفقيه ابي ابراهيم رحمه الله تعالى فيمن يختلف اليه للتفقه والرواية فاني لعنده في بعض الايام في مجلسه بالمسجد المنسوب لابي عثمان الذي كان يصلي به قرب داره بجوفي قصر قرطبة ومجلسه حافل بجماعة الطلبة وذلك بين الصلاتين اذ دخل عليه خصي من اصحاب الرسايل جاء من عند الخليفة الحكم فوقف وسلم وقال له يا فقيه اجب امير المومنين ابقاه الله فان الامر خرج فيك وها هو قاعد ينتظرك وقد امرت باعجالك فالله الله فقال له سمعا وطاعة لامير المومنين ولا عجلة فارجع اليه وقل له عني انك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى معي طلاب العلم اسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم يقيدونه عني وليس يمكنني ترك ما انا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته فذلك اوكد من مسيري اليه الساعة فاذا انقضى امر من يجتمع الي من هولاء المحتسبين في ذات الله الساعين لمرضاته مشيت اليه ان شاء الله ثم اقبل على شانه ومضى الخصي يهينم متضاجرا من توقفه فلم يك الا ريثما ادى جوابه وانصرف سريعا ساكن الطيش فقال له يا فقيه انهيت قولك على نصه الى امير المومنين ابقاه الله فاصغى اليه وهو يقول لك جزاك الله خيرا عن الدين وعن امير المومنين وجماعة المسلمين وامتعهم بك وانت اذا ارعيت فامض اليه راشدا ان شاء الله تعالى فقد امرت ان ابقى معك حتى ينقضي شغلك وتمضي معي فقال له حسن جميل ولكنني اضعف عن المشي الى باب السدة ويصعب علي ركوب دابة لشيخوختي وضعف اعضايي وباب الصناعة الذي يقرب الي من ابواب القصر المكرم احوط وارفق بي فان راى امير المومنين ايده الله ان يامر بفتحه لادخل اليه منه هون علي المشي وودع جسمي واحب ان تعود فتنهي اليه ذلك عني حتى تعرف رايه فيه وكذلك تعود الي فاني اراك فتى سديدا فتكون على الخير معينا ومضى عنه الفتى ثم رجع بعد حين وقال يا فقيه قد اجابك امير المومنين الى ما سالت وامر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله ومنه خرجت اليك وامرت بملازمتك متذكرا بالنهوض عند فراغك وقال افعل راشدا وجلس الخصي جانبا حتى اكمل ابو ابراهيم مجلسه كاضرب ما جرت به عادته غير منزعج ولا قلق فلما انفضضنا عنه قام الى داره فاصلح من شانه ثم مشى الى الخليفة الحكم فوصل اليه من ذلك الباب وقضى حاجته من لقايه ثم صرف على ذلك الباب فاعيد اغلاقه على اثر خروجه قال ابن مفرج ولقد تعمدنا في تلك العشية اثر قيامنا عن الشيخ ابي ابراهيم المرور بهذا الباب المعهود انغلاقه بدبر القصر لنرى تجشم الخليفة له فوجدناه كما وصف الخصي مفتوحا قد حفه الخدم والاعوان منزعجين ما بين كناس وفراش متاهبين لانتظار ابي ابراهيم فاشتد عجبنا لذلك وطال تحدثنا عنه انتهى فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك معهم قدس الله تلك الارواح ثم توفي الناصر لدين الله في ثاني او ثالث شهر رمضان من عام خمسين وثلاثماية اعظم ما كان سلطانه واعز ما كان الاسلام بحكمه قال ابن خلدون خلف الناصر في بيوت الاموال خمسة الاف الف الف ثلاث مرات انتهى قال غيره وحكي انه كان يقسم الجباية اثلاثا ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الاندلس يوميذ من الكور والقرى خمسة الاف الف واربعماية الف وثمانين الف دينار ومن السوق والمستخلص سبعماية الف وخمسة وستون الف دينار واما اخماس الغنايم العظيمة فلا يحصيها ديوان وحكي انه وجد بخط الناصر رحمه الله ايام السرور التي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا وعدت تلك الايام فكانت اربعة عشر يوما فاعجب ايها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفايها وبخلها بكمال الاحوال لاوليايها هذا الخليفة الناصر حلف السعود المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود ملكها خمسين سنة وستة او سبعة اشهر وثلاثة ايام ولم تصف له الا اربعة عشر يوما فسبحان ذي العزة القايمة والمملكة الدايمة لا اله الا هو ومما ينسب للناصر من الشعر وقيل لابنه الحكم قوله • ما كل شيء فقدت الا • عوضني الله منه شيا • اني اذا ما منعت خيري • تباعد الخير من يديا • من كان لي نعمة عليه • فانها نعمة عليا • ومما زين الله به دولة الناصر وزراوه الذين من جملتهم ابن شهيد قال في المطمح احمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد فخر الامامة • وزهرة تلك الكمامة • وصاحب الناصر عبد الرحمن • وحامل الوزارتين على سموها في ذلك الزمان • استقل بالوزارة على ثقلها • وتصرف فيها كيف شا على حد نظرها والتفات مقلها • فظهر على اوليك الوزراء • واشتهر مع كثرة النظراء • وكانت امارة عبد الرحمن اسعد امارة • تعد عنها كل نفس بالسوء امارة • فلم يطرقها صرف • ولم يرمقها بمحذور طرف • فنزع الناس فيها هضاب الاماني وربوها • ورتعت ظباوها في ظلال ظباها • وهو اسد على براثنه رابض • وبطل ابدا على قايم سيفه قابض • يروع الروم طيفه • ويجوس خلال تلك الديار خيفه • ويروى بل يحسم كل آونة سيفه • وابن شهيد يلتح الاراء ويلقحها • وينقل تلك الانحاء وينقحها • والدولة مشتملة بغنايه • متجملة بسنايه • وكرمه منتشر على الامال • ويكسو الاولياء بذلك الاجمال • وكان له ادب تزهر لجته

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)